

شعر المولدين بين قواعد النُّحاة و اتّساع اللّغة

¹ أ.د. محمّد غالب عبد الرّحمن وراق- جامعة أم درمان الإسلامية
د. ازدهار عبد الرّحمن السيّد إبراهيم/ - جامعة أم درمان الإسلامية.

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2024 / 12 / 30	2023 / 11 / 29	2023 / 08 / 25

ملخص البحث

عرض الباحثان في هذا البحث إلى دراسة موقف النُّحاة من الاحتجاج بالشعر العربي؛ أحد أهم مصادرهم في استنباط قواعد العربية. وقد تناول الباحثان بالشرح والتحليل، تقسيم النُّحاة واللغويين إلى أربع طبقات، اعترفوا بحجّة بعضها في استنباط قواعدهم ورفض أخرى. وقد استنبط الباحثان الأسس التي مثلت مرجعيّة في نظرة النُّحاة لقبول شعر هذا الشاعر أو رفضه. وقد تمثّلت هذه الأسس في: القيد الزمني، البيئة، طبيعة الشعر.

اجتهد الباحثان في فهم المراد من مصطلح (المولّدون)، هذا المصطلح الذي لم يضع له النُّحاة توصيفًا دقيقًا، مما جعله محل خلاف بينهم؛ حيث رفض أكثرهم الاحتجاج بشعر من سُمّوا بالمولدين، على حين عدّهم بعضهم كالإمام الزمخشري مصدرًا موثّقًا لاستنباط قواعد العربية.

والباحثان يقفان مع مبدأ توسيع دائرة الاحتجاج؛ لتشمل شعراء كالمُتنبّي وبيشّار وأبي تمام وأبي نّوّاس، ولا يدخل في ذلك شعر المعاصرين كما يدعو إلى ذلك بعض العلماء؛ لأنّ ضبط ذلك مستحيل.

Abstract

In this research, the researchers examined the attitude of the grammarians towards the invocation of Arabic poetry, one of their most important sources in deriving the rules of Arabic. The researchers explained and analyzed the division of grammarians and linguists into four classes, some of which they recognized as authoritative in deriving their rules and others they rejected. The researchers deduced the bases that represented a reference in the grammarians' view of accepting or rejecting the poetry of this poet. These bases were: Time constraint, environment, nature of the poetry.

The researchers endeavored to understand the meaning of the term 'mawlid in', a term that was not precisely defined by the grammarians, which made it the subject of disagreement among them; most of them refused to invoke the poetry of the so-called mawlid in, while some of them, such as Imam Zamakhshari, considered them a reliable source for deriving Arabic grammar.

The researchers are in favour of expanding the circle of invocation to include poets such as al-Mutanabbi, Bashara, Abu Tamam and Abu Nawas, and not including the poetry of contemporaries, as called for by some scholars, because it is impossible to control this.

مقدّمة

الشواهد الشعرية هي عصب القضايا النحوية؛ إذ بها يُقام الدليل وتقوى الحجّة، وتتّضح القاعدة وتُبيّن وتوثّق، وبه نصل إلى المفهوم النحوي السليم؛ فالنحو علم قياسي ومسبار لأكثر العلوم ولا يُقبل إلا ببراہين وحجج، وقد استأثر الشعر باهتمام النُّحاة واللغويين؛ حيث جعلوه أحد أهم مصادرهم في استنباط قواعدهم. تناول الباحثان هذا الموضوع: (شعر المولدين بين قواعد النُّحاة و اتّساع اللّغة) لكونه تناول المصدر الأول في استنباط القواعد لدى العلماء؛ وهو الشعر العربي. كما بيّن موقف النُّحاة من الشعر عامة، وشعر المولدين خاصة.

وأما أبرز أهداف البحث، فتتمثل في بيان أهم الأسس التي مثّلت مرجعية في نظر النُّحاة لقبول شعر هذا الشاعر أو رفضه؟

أسئلة البحث: ما المراد من مصطلح (المولّدون) الذي كان محلّ خلاف بين العلماء؟

ولمّ لم يضع النُّحاة توصيفًا دقيقًا لمصطلح المولدين؟

هل من العلماء من عدّ شعر المولدين مصدرًا لاستنباط قواعد العربية؟

ما مسوغ الدعوة لتوسيع دائرة الاحتجاج من قبل الباحثين؛ ليشمل شعراء مجيدين كالمُتنبّي وبشّار وأبي تمام وأبي نّوّاس؟

اتّخذ الباحثان المنهج الوصفي لهذه الدراسة؛ لأنّه الأنسب، فهو يبنّي على اختيار النماذج وعرضها وتحليلها.

وجاء البحث في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة تتضمن أبرز النتائج والتوصيات.

وقد خلص البحث إلى نتائج أبرزها:

- إنّ الأسس التي مثّلت مرجعية للنُّحاة في موقفهم من الشعر هي: القيد الزمني، والبيئة، طبيعة الشعر.
- تبين للباحثين -بعد التأمل والدراسة- أنّ مصطلح الشعراء المولدين، يمتاز بالعموم والإبهام؛ إذ لم يُبنّ توصيف هذا المصطلح على أسس علمية واضحة.

المبحث الأول: الشعر المصدر الأول للاحتجاج النحوي

لم يدوّن العرب شعرهم في الجاهلية، وظل هذا شأنهم في صدر الإسلام، فهم يتناشدون الشعر ولا يقيّدونه إلا قليلًا وفي ظروف خاصة، حتى مُصِرت الأمصار وراجعت العرب أشعارها، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في تسجيل غزوات الرسول عليه السلام وأحاديثه، فظهر رواة محترفون يُعَنّون بأخبار العرب الماضين وما كان يجري على ألسنة شعرائهم. وأهم هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية وخلف الأحمر ومحمد بن السائب الكلبي والمفضل الضبي والأصمعي وابن الأعرابي وغيرهم. وقد استقى هؤلاء الرواة رواياتهم من القبائل والأعراب، كما أنّ بعضهم رحل إلى بوادي نجد والحجاز؛ ليستقي الأشعار والأخبار من ينابيعها الصافية، كما كان بين البدو أنفسهم من هاجر إلى البصرة والكوفة؛ ليعرض على هؤلاء العلماء الرواة بضاعته من الكلام العربي.

وقد كان من أهم الأسباب التي دعت هؤلاء العلماء إلى الجدّ في جمع المادة اللغوية الجاهلية، شعرًا ونثرًا تفسير ألفاظ القرآن الكريم، فقد جرت عادة المفسرين من لدن ابن عباس رضي الله عنه، على الاستشهاد

بالشعر الجاهلي في شرح ألفاظ القرآن الكريم، وإجابات ابن عباس عن سؤالات نافع بن الأزرق خير شاهد على هذه الحقيقة. كما انبرت طائفة أخرى من العلماء تحاول وضع قواعد للعربية تعصم اللسان من الخطأ، وذلك بعد أن تعاظم خطر اللحن في البيئة العربية. وقد اعتمد هؤلاء على الشعر، خاصة الشعر الجاهلي في تقعيد قواعدهم. إذن كان الشعر أهم مصدر من مصادر الاحتجاج النحوي، ومن ثم كان وضع النحو داعية من دواعي جمع الشعر ودراسته.

يبدو أن العصر الجاهلي قد عرف بعض أنواع اللحن، لكنه لم يكن من الخطورة التي تلفت النظر إليه، أما حين ننحدر إلى القرن الأول الهجري في عهد الأمويين، فإننا نرى أن اللحن قد اتسع شيعه على الألسنة، وخاصة بعد أن اشتد خلاط العرب بغيرهم من الشعوب التي كانت تجاورهم، كما فشا اللحن بين نازلة العرب في الأمصار الإسلامية، حيث ضعفت سلائقهم؛ لبعدهم عن ينابيع اللغة الفصيحة ولاختلاطهم بالأجانب، بسبب الحروب والجوار والخدمة والمعايشة بل إن الخاصة من العرب لم يسلموا من اللحن.

وتزخر كتب اللغة والأدب والأخبار بالروايات المتعددة التي تشير إلى شيوع اللحن بين شخصيات كانت لها مكانتها في العصر الأموي، سواء حدثت منهم أو حدثت بحضرتهم، ومن أجل هذا استحقت أن تُنقل وتُروى¹. وبالقِطع لم يكن عامة الناس بعيدين عن هذه الآفة، بيد أن لحنهم لم يكن محل رصد أو دراسة.

وانضمت إلى اللحن بواعث أخرى جعلت الحاجة تمس إلى وضع رسوم يُعرف بها الصواب من الخطأ في الكلام؛ خشية تسرب اللحن إلى كتاب الله. وقد نهض علماء اللغة والنحو بهذه المهمة الخطيرة، فساحوا في البوادي ينقلون عن الأعراب اللغة الصافية النقية، ثم أقبلوا على ما جمعوها؛ يستنبطون منه قواعد وقوانين النحو.

وقد قسّم النحاة الأوائل مصادر احتجاجهم إلى أربعة أقسام: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، الشعر، النثر. أما الشعر - موضوع دراستنا هذه - فقد قسّم النحاة الشعراء إلى أربع طبقات، احتجوا بمن ظنوا أنهم فصحاء يمثلون اللغة الفصيحة، لم تشب لغتهم شائبة لحن، ورفضوا الاحتجاج بمن ظنوا أن لغتهم قد فسدت بمخالطة غير العرب! وهنا تنشأ مجموعة أسئلة: ما المقياس الذي اعتمده النحاة في توثيق هذا الشاعر أو ذاك أو رفضه؟ وهل كان صنيعهم هذا موضوعاً مقبولاً؟ وما الذي ترتّب على ذلك؟ وسيكون النظر والتأمل في هذه الأسئلة لحمة هذا البحث وسداه.

موقف النحاة من الشعراء:

ذكرنا آنفاً أن النحاة قسّموا مصادر احتجاجهم إلى ثلاثة مصادر: القرآن الكريم وقراءاته المختلفة، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب شعراً ونثراً. والشعر هو محلّ عنايتنا في هذا البحث، فكيف نظر النحاة إلى الشعر والشعراء؟

أولاً: لا بد أن نقرر أن النحاة اتخذوا الشعر من بين هذه المصادر مصدرهم الأول، يثبت هذه الحقيقة الواقع اللغوي الذي سطره في مؤلفاتهم، وليس صحيحاً ما يردده كثير من الباحثين ويتناقلونه من مؤلف إلى آخر، أن القرآن الكريم هو مصدر النحاة الأول للاحتجاج، يليه الشعر. ربما يكون هذا الزعم صحيحاً من الناحية النظرية، أما الواقع والممارسة فيشهدان بنقيض ذلك، أي أن الشعر كان هو المصدر الأول للنحاة من حيث

الممارسة. فلو احتكمنا - مثلاً - إلى كتاب سيبويه، وهو أوّل مصنف مدوّن وصل إلينا فسنجد تصديقاً لما ذكرناه، فكتاب سيبويه يحتوي على ما يزيد عن ألف شاهد شعري ونحو ثلاثمائة آية قرآنية، وبضعة أحاديث نبوية. وسار على نهج سيبويه من جاءوا بعده كالمبرد في المقتضب وابن السراج في الأصول والفارسي والزمخشري وغيرهم. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا ابن هشام الأنصاري المتوفى (761هـ) حيث أكثر من الاحتجاج بالقرآن الكريم كما في كتابه مغني اللبيب.

يستطيع الباحثان تلمّس الأسس التي بنى عليها النُحاة موقفهم من الشعراء في قبول شعرهم ومن ثم الاحتجاج به أو رفضه وعدم الاحتجاج به، من تلك الروايات المتناثرة في كتب اللغة والأدب. ومن هذه الروايات قول ابن رشيق صاحب العمدّة: «... وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد أحسن هؤلاء المولّدون حتى هممت أن أمر صبياننا بروايته. يعني بذلك شعر جرير والفرزدق، فجعله مولّداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين، وكان لا يعدّ الشعر إلا ما كان للمتقدمين. قال الأصمعي: جلست إليه ثمانى حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي»².

ومن تلك الروايات ما نُقل عن الأصمعي إذ يقول: «إن شعر ذي الرمة حلّو أول ما تسمعه، فإذا كثّر إنشاده ضعف ولم يكن له حسن؛ لأنّ أبعاد الطّباء أول ما تشمّ يوجد لها رائحة ما أكلت الطّباء من الشّيح والقيصوم، فإذا أدّمت شمه ذهبت تلك الرائحة، ونقط العروس إذا غسلتها ذهبت»³. وفي رواية أخرى عن الأصمعي قوله: «الكميت ابن زيد ليس بحجة؛ لأنه مولّد، وكذلك الطرماح»⁴ وفي رواية ثالثة عنه أيضاً: «عمر بن أبي ربيعة حجة في العربية، وما تعلق عليه بشيء غير حرف واحد، وله وجه قوله في الاستفهام. ثم قالوا: تحبها قلت: بهراً ولم يقل أتحبها»⁵.

ولكي نحدد الأسس التي تفهم من هذه الروايات المتناثرة، نشير إلى الطبقات التي ذكرها النُحاة، بوصفها ممثلة لعصور الاحتجاج، وهي أربع طبقات على النحو التالي:

الطبقة الأولى: الشعراء الجاهليون، وهم قبل الإسلام كامريء القيس والأعشى.

الطبقة الثانية: المخضرمون، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كلبيد وحسان.

الطبقة الثالثة: المتقدمون، ويقال لهم الإسلاميون، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام، كجرير والفرزدق.

الطبقة الرابعة: المولّدون، ويقال لهم المحدثون، وهم من بعدهم إلى زماننا هذا كبشّار بن برد وأبي نّوّاس⁶

يقول البغدادي معلقاً على هذا التقسيم: «فالتبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعاً، وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها... وأما الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم»⁷

ويمكننا الآن أن نحدد الأسس التي كانت مرجعية للنُحاة في موقفهم من الشعر، وهي:

القيد الزمني.

البيئة.

طبيعة الشعر.

أما الأساس الأول (القيد الزمني) فإنّ الباحثين لا يكادان يعثران على نصّ قاطع يحدد بدقة الزمن الذي يبدأ منه الاحتجاج وينتهي، لكن الذي يفهم من الروايات المتداولة أنّهم حددوا منتصف القرن الثاني من الهجرة في الأمصار، أما في البوادي فقد حددوا منتصف القرن الرابع الهجري. وهذا التحديد العام يفهم من تلك الروايات المتناثرة التي طبقها النُحاة على الشعراء في تلك الفترة الحاسمة وما بعدها؛ فإما قبول ما يقولون في ضوء تلك القواعد التي استنبطوها، وإما رفض ما يقولون صراحة أو ضمناً، ومن هؤلاء الأخيرين ذو الرمة (ت ١١٧هـ) وبشار بن برد (ت ١٦٧هـ)، وابن هرمة (ت ١٧٦هـ)، ومروان بن أبي حفصة (ت ١٨٢هـ).

أما من جاءوا بعد هذا الزمن من الشعراء فقد وصفهم النُحاة بالمولّدين، حيث تأخر بهم الزمن، وقد وصفوا شعرهم بالغلط والتخليط واللحن، وتتبعوا سقطاتهم.

والأساس الثاني الذي اعتمده النُحاة (البيئة) البداوة، فقد توهّم النُحاة أنّ سكّنى الحضر مظنة لفساد اللغة بسبب الخلط مع غير العرب، والبوادي هي منبع اللغة الصافية النقية، والأمثلة على ذلك كثيرة، من ذلك ما روي عن أبي حاتم، قال: قلت للأصمعي: أتجزئ (إنك لتُبرق وتُرعد) فقال: لا (إنما هو تبرق وتُرعد) فقد قال الكميت:

أرعد وأُبرق يا يزي *** دُفماً وعيدك لي بضائر

فقال ذلك جرمقاني من أهل الموصل ولا أخذ بلغته⁹⁸

أما الأساس الثالث، فيتمثل في طبيعة الشعر، فأى نوع من الشعر اتخذ النُحاة مادة لقواعدهم؟ إنّ المتأمل في الشواهد النحوية الشعرية، ومما قاله النُحاة والرواة يدرك أن النحاة وجهوا جهودهم إلى انتخاب نوع معين من الشعر؛ هو الشعر البدوي الوعر، وكلما ازداد بداوة وغبابة كان أدعى للقبول وأقوى في الاستشهاد، وأدلّ على أصالته ونقائه. وإلى جانب البداوة اعتبروا الطبع عاملاً من عوامل القبول والثقة في الشعر، فالشاعر الأصيل ذو الفطرة السليمة، هو الذي يبدع شعراً مطبوعاً، أما الشاعر الذي يُجود شعره ويصنعه فهذا دليل على بعده عن الفطرة؛ مهما بلغ شعره من الجودة والإتقان، وفي هذا المعنى يقول ابن سلام: «وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه. ولا حجة في عربية، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب ... وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء»¹⁰ وفي رواية أخرى عن الأصمعي تأكيد لما ذهبنا إليه قوله: «ليس الكميت بن زيد بحجة؛ لأنّ الكميت كان من أهل الكوفة فتعلم الغريب وروى الشعر وكان معلماً فلا يكون مثل أهل البدو»¹¹.

بيان وتفصيل للقيد الزمني:

لقد حدّد النُحاة العصور التي ظنوا أنّ سلائق العرب ظلت خالصة من الشوائب والهجنة، فأطلقوا عليها عصور الاحتجاج، ومن ثمّ قسّموا العرب إلى قسمين: عرب البوادي وعرب الأمصار، فعرب البوادي يُحتج بشعرهم إلى منتصف القرن الرابع الهجري، وعرب الأمصار يصح الاحتجاج بشعرهم إلى منتصف القرن الثاني الهجري.

مرّ بنا أنّ العلماء قسّموا الشعراء إلى أربع طبقات: طبقة الجاهليين، وهم قبل الإسلام كامريء القيس، وطبقة المخضرمين، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كحسان وليبيد. فهاتان الطبقتان - كما يقول البغدادي - لا خلاف في الاحتجاج بشعرهما¹² والطبقة الثالثة هي طبقة المتقدمين، ويقال لهم الإسلاميون كجرير والفرزدق.

وقد تباينت آراء النُّحاة إزاء هذه الطبقة، فقد رأينا بعض النُّحاة يُلجّن رجالها ويخطئهم، ويبدو من كلام أبي عمرو بن العلاء أنّه لم يكن يأخذ بشعرهم، إذ يروى عنه أنه قال: «لقد حَسُنَ هذا المولّد حتى هممت أن أمر صبياننا بروايته، يعني بذلك شعر جرير والفرزدق، فجعله مولدًا، بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين. وكان لا يعدّ الشعر إلا ما كان للمتقدمين»¹³. وهكذا كان أصحاب أبي عمرو كالأصمعي وابن الأعرابي، فكلهم كان يذهب في أهل عصره هذا المذهب، ويقدم عليهم من كانوا قبلهم؛ لقلة ثقّتهم بما يأتي به هؤلاء! وفي هذا السياق يقول البغدادي: «وقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي اسحق والحسن البصري وعبد الله بن شبرمة يلحّون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم... وكانوا يعدّونهم من المولّدين؛ لأنهم كانوا في عصرهم والمعاصرة حجاب»¹⁴.

ولكن معظم النُّحاة وثقوا شعراء هذه الطبقة الثالثة، فاستشهدوا بأشعارهم، وقد كان موقف هؤلاء النُّحاة واقعيًا، حين نظروا إلى المسألة نظرة موضوعية، يلخص هذا الموقف ابن قتيبة إذ يقول: «...إني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخير، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنّه قيل في زمانه، أو أنّه رأى قائله. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قومًا دون قوم، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثًا في عصره، وكل شرف خارجيّة في أوله»¹⁵.

يؤكد نصّ ابن قتيبة السابق أنّ العبرة ليست بتقدم الشاعر في الزمان أو تأخره، إنّما العبرة في جودة شعره وحسن نظمها يعني من بين ما يعني أنّ ينظم شعره وفق قواعد اللغة العربية وألا يخرج عنها وهذا فهم واقعي وعملي، ولو أنّ النُّحاة أخذوا بهذا المبدأ لما أهدروا تراثًا ضخمًا رفضوا قبوله بحجة تأخر قائله، وربما كانوا قد أكسبوا - بهذا الصنيع - قواعدهم اطرادًا وإحكامًا؛ لو قبلوا شعر هؤلاء الذين يسميهم بعضهم مولّدين. وممن رأوا ما رآه ابن قتيبة ابن عبدربه، حيث يقول: «اعلم بأنك متى ما نظرت بعين الإنصاف، وقطعت بحجة العقل، علمت أنّ لكل فضل فضله، ولا ينفع المتقدم تقدمه، ولا يضر المتأخر تأخيره، فأما من أساء النظم ولم يحسن فكثير»¹⁶.

أما الطبقة الرابعة، فهم المولّدون، ويقال لهم المحدثون، وهم من بعدهم إلى زماننا، كبشّار بن برد وأبي نوّاس، وقد أشار الإمام السيوطي إلى موقف النُّحاة من هذه الطبقة فقال: «أجمعوا على أنّه لا يحتجّ بكلام المولّدين والمحدثين في اللُّغة والعربية، وفي الكشف ما يقتضي تخصيص ذلك بغير أئمة اللُّغة ورواتها؛ فإنّه استشهد على مسألة بقول حبيب بن أوس»¹⁷. وقد ذهب البغدادي إلى مثل ما ذهب إليه السيوطي، قال: «وأما الرابعة فالصحيح أنّه لا يُستشهد بكلامها مطلقًا، وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم، واختاره الزمخشري، وتبعه الشارح المحقق - يقصد الرضي - فإنّه استشهد بشعر أبي تمام في عدة مواضع من هذا الشرح»¹⁸. فمن هم هؤلاء المولّدون؟ ولماذا لم يثق فيهم النُّحاة؟ وما الذي ترتب على صنيع النُّحاة هذا؟ هذا ما سنتناوله في المبحث التالي.

المبحث الثاني: المولّدون

لا يكاد الباحثان يقفان على توصيف دقيق لمن سماهم النُّحاة واللغويون بالمولّدين أو المحدثين، بعبارة أخرى، من هم القدماء الذين احتج النُّحاة بشعرهم، ومن هم المولّدون الذين استبعدهم النُّحاة من دائرة الاحتجاج، فأبو عمرو بن العلاء وهو أول العلماء الرواة، وقد عاش حياته في الإسلام، كان لا يعدُّ الشعر إلا ما كان للمتقدمين. يقول ابن رشيّق: «كان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد حسن هذا المولد حتى هممت أن أمر صبياننا بروايته، يعني بذلك شعر جرير والفرزدق، فجعله مولّدًا بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين»¹⁹ وفي موضع آخر يضيف ابن رشيّق عن أبي عمرو: «وسُئل عن المولّدين؟ فقال: ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبيح فهو من عندهم، ليس النمط واحدًا»²⁰

يضاف إلى أبي عمرو بن العلاء في هذه النظرة إلى الشعراء المولّدين علماء آخرون، يشير البغدادي إلى بعضهم: «وقد كان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحق والحسن البصري وعبد الله بن شبرمة يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضرابهم ... وكانوا يعدّونهم من المولّدين؛ لأنّهم كانوا في عصرهم والمعاصرة حجاب»²¹. وفي رواية أخرى للأصمعي، يقول المرزباني: «الكميت بن زيد ليس بحجة، لأنّه مولّد وكذلك الطرماح»²². وفي موقف آخر عن الأصمعي وقد سُئل عن مروان بن أبي حفصة قال: «كان مولّدًا وليس له علم باللغة»²³.

يبدو أنّ بعض اللغويين والنحويين يرون أنّ سكّنى الحضر وتعلم العربية يبعدان الشاعر عن دائرة الحجية والتوثيق، ومن ثم قبول شعره مصدرًا لقواعدهم، بل إنّ هاتين الصفتين يسلكانه في سلك المولّدين، يقول المرزباني: «... عن الأصمعي قال: ليس الكميّ بن زيد بحجة؛ لأنّ الكميّ كان من أهل الكوفة فتعلّم الغريب وروى الشعر وكان معلّمًا فلا يكون مثل أهل البدو»²⁴ بل إنّ الأصمعي أحد أشهر رواة اللّغة وحفظها وتلميذ أبي عمرو بن العلاء يتّهم شاعرين من الشعراء المعروفين بأنّهما لا يفهمان ما يقولان مما سمعاه أو تعلماه، يقول المرزباني: «حدثنا المازني: قال سمعت الأصمعي يقول: الكميّ تعلم النحو وليس بحجة، وكذلك الطرماح، وكنا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهمانه»²⁵.

واضح مما ذكرناه في الفقرة أعلاه أنّ أبا عمرو بن العلاء يعدُّ من كانوا في العصر الإسلامي وعصر بني أمية مولّدين، وحكم على شعرهم بأنّه مولّد أو محدث، ومن ثم لا يجوز الاحتجاج به على قواعد العربية، بيد أنّ المشهور بين العلماء الذين تأخّر بهم الزمن أنّ المولّدين يبدأون مع بداية الدولة العباسية بطبقة بشار ومروان بن أبي حفصة وغيرهما، يقول السيوطي محدّدًا بداية قاطعة لزمان المولّدين: «أول الشعراء المحدثين بشار بن برد»²⁶ والذي يلاحظ أنّ النحاة الذين سردنا طرفًا من أقوالهم اتّخذوا الإقامة في البادية أو في الحضر أساسًا آخر إلى جانب القيد الزمني؛ للتفريق بين المولّدين وغيرهم. وقد ظلّ هذا العرف ساريًا من منتصف القرن الثاني الهجري إلى أواخر القرن الرابع الهجري.

ومن يتأمل في تصنيف النُّحاة للشعراء المولّدين، يدرك أنّ هذا التصنيف لم يكن تصنيفًا علميًا أُسس على ضوابط صادقة وواضحة، بل ربما كان نابعًا من اختلاف أذواق اللغويين والنحويين. وفي هذا يقول عثمان الفكي: «إنّ الذي يبدو لي - في ضوء تلك الحقائق السابقة - أنّ تحديد طبقة المولّدين لم يكن نابعًا من دراسة

دقيقة للغة هؤلاء المولدين، بقدر ما كان نابغاً من اختلاف الأذواق، فبعض اللغويين كان مشدوداً إلى القديم لا يكاد ينظر إلى جديد إلا في توجس وقلة ثقة بما يأتي به المولدون»²⁷.

يؤكد ما ذهب إليه عثمان الفكي أنفاً، ما جاء في الموشح للمرزباني قال: «سمعت ابن الأعرابي يقول: إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نؤاس وغيره مثل الريحان يُشم يوماً ويدوي فيرمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر، كلما حركته ازداد طيباً»²⁸ وفي رواية أخرى أن اسحق الموصلي أنشد الأصمعي:

هل إلى نظرة إليك سبيل *** فيبَلّ الصدى ويُشفي الغليل

فقال الأصمعي: لمن تشدني؟ فقال: لبعض الأعراب قال: والله هذا هو الديباج الخسرواني، قال: فإنهما ليلتهما. فقال: لا جرم والله إن أثر الصنعة بادٍ عليهما»²⁹. فالأصمعي يستحسن بيت الموصلي ويستجده، وعندما علم أنه لمولد ذمه وقّل من شأنه.

إن الذي يؤكد أن مصطلح (المولدين) لم يكن له مضمون موضوعي واضح ولا قيد زمني محدد، جملة من الروايات والوقائع، من ذلك ما روى عن أبي عمرو بن العلاء: «لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه أحداً»³⁰ فأبو عمرو يُقرّ باستيفاء شعر الأخطل لمقاييس الفن الشعري الجيد، أي أنه يراعي تقاليد الشعر الفنية، وقواعد العربية المتوارثة في بيئته، لكن المشكلة - من وجهة نظر شيخ الرواة واللغويين - أنه لم يعيش في العصر الجاهلي. ومما يؤكد ما قلناه من عمومية مصطلح (المولدين) أن النحاة جعلوا ابن هرمة آخر من يحتج به، نقل ذلك ثعلب عن الأصمعي إذ يقول: «ختم الشعر بإبراهيم بن هرمة، وهو آخر الحجج»³¹، وجعلوا بداية المولدين ببشار، وقد كان ابن هرمة معاصراً لبشار، فكلاهما ولد في النصف الثاني من القرن الأول، وكانت وفاتهما بعد منتصف القرن الثاني، فابن هرمة توفي (176هـ)، وتوفي بشار (167هـ). يضاف لهذا أن بشاراً نشأ في بني عقيل، وأخذ اللغة عن اللغويين والرواة في المريد وفي حلقات العلماء، فاكتسب الفصاحة والسليقة العربية، وليس من مسوغ مقنع يجعل النحاة يحتجون بشعر ابن هرمة، ويرفضون شعر معاصره بشار!

إن المآخذ التي أخذها النحاة - وعلى رأسهم الأخفش الأوسط - على بشار لا تمثل مسوغاً يجعل بشاراً في مرتبة أقل من صاحبه ابن هرمة؟ ومن المآخذ التي أخذها النحاة على بشار ما أورده المرزباني، حيث يقول: «كان الأخفش يطعن على بشار في قوله:

وَالآن أَقْصَرَ عَنْ سُمَيَّةَ بَاطِلِي *** وَأَشَارَ بِالْوَجَلَى عَلَيَّ مُشِيرٌ³²

وفي قوله:

عَلَى الْغَزَلِي مَيِّ السَّلَامُ قَرِيماً *** لَهَوْتُ بِهَا فِي ظِلِّ مَرْوُومَةٍ زُهْرٍ³³

قال: «لم يُسمع من الوجل والغزل (فَعَلَى)، وإنما قاسهما بشار، وليس هذا مما يقاس وإنما يعمل فيه بالسمع»³⁴.

وربما كان تفسير ما صنعه بشار أن بشاراً - وهو يتصدر لواء التجديد في مطالع العصر العباسي - اضطر إلى اشتقاق صيغ وأساليب ليست مطروقة؛ لتعبر عما استحدث من مظاهر الحياة وأساليبها. وقد كان بشار يمتلك أدوات الابتكار والقياس على كلام العرب، يؤكد ذلك قول رؤبة: «إن العربي إذا اشتدت عارضته يستطيع أن يشتق من كلام العرب ما يقاس على كلامهم»³⁵. وكل ذلك لا يخرج عن القاعدة التي نقلها ابن جني عن المازني

في قوله: «ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب»³⁶ وقد نفى الجاحظ عن بعض المولدين الصنعة والتكلف، مما يؤكد أنَّ القيد الزمني لا علاقة له بجودة الشعر وحسنه، يقول الجاحظ: «المطبوعون على الشعر من المولدين بشَّار العقيلي والسيد الحميري وأبو العتاهية وابن أبي عيينة. وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل وسلم الخاسر وخلف بن خليفة. وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى من هؤلاء. وبشار أطعمهم كلهم»³⁷. ويزيد ابن عبد ربه مقالة الجاحظ تفسيراً وبياناً بقوله: «اعلم بأنك متى ما نظرت بعين الإنصاف، وقطعت بحجة العقل، علمت أنَّ لكل فضل فضله، ولا ينفع المتقدم تقدمه، ولا يضر المتأخر تأخره. فأما من أساء النظم فكثير»³⁸.

إنَّ القدم والحداثة من الأمور النسبية التي تخضع لتطور الزمن ولطبيعة الحياة، لكن النُحاة واللغويين الأوائل لم يراعوا هذه النسبية في نظرتهم لشعر الشعراء، وقد ترتب على ذلك اضطراب في تحديد عصر الاحتجاج، ومن ثم تنوعت واختلفت دلالة كلمة مولدين.

المبحث الثالث: الزمخشري والمولدون

واضح مما استعرضناه- في المبحث السابق - من روايات متعددة أنَّ المقياس الذي اتخذته القدماء من لغويين ونحاة ورواة هو القدم، وهذا هو السبب في ثقتهم عموماً بكلِّ ما سُمع أو رُوي قبل منتصف القرن الثاني الهجري، فهو مقبول عندهم؛ لأنَّه يحمل علامة الجودة، أما ما بعد ذلك فمحكوم عليه بالرفض والإنكار، وهو شعر من سماهم اللغويون والنُحاة بالمولدين أو بالمحدثين، فهل كان كلَّ النحويين واللغويين على منهج واحد في هذا ؟

فالمؤكد أنَّ اللغويين والنحويين لم يكونوا على رأي واحد في قضية الاحتجاج والتوثيق، فهناك من وسَّع من دائرة الاحتجاج وخرج بها عن الزمن الذي حدده النُحاة المتشددون؛ كابن عمرو بن العلاء والأصمعي وغيرهما، أولئك النُحاة الذين أرادوا أن يضعوا للغة قواعد عامة على أساس ما انحدر إليهم من نصوصها، فوقفوا عند حدِّ ما سمعوا وما رُوي لهم من ألفاظ وتراكيب وأصوات لا يريدون أن يتعدوها. ولما انصرم القرن الثاني الهجري وأقبل القرن الثالث بكلِّ ما احتواه من حياة اجتماعية جديدة في كلِّ مظاهرها، تساءل اللغويون والنحويون الذين بدأ نشاطهم مع هذا القرن عن إمكانية قبول شعر شعراء هذه الفترة وما بعدها؟

ومن الرواد الذين بدأوا بتوسيع دائرة الاحتجاج العالم اللغوي والمفسر المشهور جار الله الزمخشري، صاحب الكشف وأساس البلاغة والمفصل، فقد كان يرى الاستشهاد بالفصحاء من الشعراء الذين عاشوا بعد الحقبة التي حددها النُحاة للاحتجاج (أواخر القرن الثاني في الحضر وأواخر القرن الرابع في البوادي) كابن تَمَّام والبحثري وأبي نَواس والمتنبي.

وقد احتجَّ الزمخشري في تفسيره الكشف عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾³⁹ إذ قرأ يزيد بن قطيب (وإذا أظلم) بالبناء للمفعول، مع أنَّه لا يبنى له؛ إذ هو فعل لازم يقال: أظلم الليل، لكنَّ الزمخشري رأى أنَّ الفعل (أظلم) متعدٍ ويبنى للمفعول، وأورد قول أبي تَمَّام شاهداً على ذلك:

هَمَّا أَظْلَمَا حَالِي تُمَتَّ أَجْلِيَا *** ظَلَامَهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدٍ أَشْيَبِ⁴⁰

وقال الزمخشري معلقاً على ذلك: «وهو وإن كان محدثاً لا يُستشهد بشعره في اللغة، فهو من علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه»⁴¹ ويقصد الزمخشري بهذه العبارة الأسرة أن أبا تمام هو صاحب الحماسة، وديوانه الحماسة- كما هو معلوم - مجموعة مختارة من الشعر القديم الحسن المبني والمعنى، اختارها أبو تمام، وقد وجدت القبول والاستحسان من اللغويين، وأصبحوا يعتمدون عليها في استشهادهم. وفحوى عبارة الزمخشري أنه أنزل ما يقوله أبو تمام منزلة ما يرويه في ديوان الحماسة؛ لأن ديوان الحماسة نتاج لذائقة أبي تمام وذاكرته، ويفترض أن يكون هذا شأن ما ينظمه من شعر. ولذا لم يجد الزمخشري حرجاً في قبول شعره والاحتجاج به على مسائل اللُغة والنحو. ويبدو أن لعقيدة الزمخشري المعتزلة أثراً في هذا الاتجاه؛ إذ اشتهر المعتزلة بالاجتهاد في مسائل العقيدة؛ لأنهم كانوا يُنسبون إلى مدرسة العقل والرأي، في مقابل الفرق الأخرى التي كانت تقدم النقل على العقل.

المبحث الرابع: موقف النحويين واللغويين من الاحتجاج

يبدو أن الزمخشري قد فتح بصنيعة هذا الباب واسعاً لمن بعده، فقد تبعه العلامة الرضي في شرحه على كافية ابن الحاجب، فقد استشهد بعدة مواضع في شرحه على كافية ابن الحاجب، ومن أمثلة ذلك قوله: «وقد يخبر عن ضمير الأمر المستفهم عنه تقديراً، بالمفرد، تقول: هو الدهر، حتى لا يبقى على صرفه باقية، قال أبو الطيب:

هُوَ الْبَيِّنُ حَتَّى مَا تَأْتَى الْحَزَائِقُ *** وَيَا قَلْبُ حَتَّى أَنْتَ مِمَّنْ أَفَارِقُ⁴²

كأنه قال: أي شيء وقع من المصائب، فقال: هو البين، وقوله: حتى ما تأتي، مبني على ما يفهم من استعظام أمر البين المستفاد من إيهام الضمير، أي: ارتقى البين في الصعوبة حتى لا يتأني جماعات الأبل أيضاً»⁴³ وتمثل بقول المتنبي كذلك في معرض حديثه عن جواز بناء أفعال التفضيل من لفظي السواد والبياض حيث قال: «وأجاز الكوفيون بناء أفعال التفضيل من لفظي السواد والبياض، قالوا لأنهما أصلا الألوان»⁴⁴ فأورد قول المتنبي:

إِبْعَدَ بَعْدَتْ بِيَاضاً لَا بِيَاضَ لَهُ *** لَأَنْتَ أَسْوَدُ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ⁴⁵

كما استشهد بعض متأخري النحاة من شراح الألفية وغيرهم بالمتنبي من مثل قوله: هَذِهِ بَرَزَتْ لَنَا فَهَجَتْ رَسِيْسًا *** ثُمَّ انْتَلَيْتِ وَمَا شَقِيَتْ نَسِيْسًا⁴⁶ شاهداً على حذف حرف النداء أي: يا هذى. وقد استشهد بهذا البيت عدد من النُحاة⁴⁷ وقوله في ميمية مشهورة: وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيْمٌ *** وَمَنْ بَجِسِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ⁴⁸ والشاهد في هذا البيت قوله (واحرَّ قلباه) حيث استعمل (وا) في غير الندبة على رأي المبرد⁴⁹، وقد عدَّ بعض النُحاة ذلك لحناً؛ والحق أنه قد سُمع في الشعر. وفي هذا السياق أجاز ابن جني أعمال (لا) عمل ليس في المعرفة ووافقه ابن مالك على ذلك، وجعل منه قول المتنبي:

إِذَا الْجُودُ لَمْ يُزَرَّقْ خَلَاصًا مِنَ الْأَذَى *** فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوبًا وَلَا الْمَالُ بَاقِيًا⁵⁰

ومن شواهد النُحاة على شعر المتنبي كذلك قوله:

وَمَا لَاقِي بَلْدٌ بَعْدَكُمْ *** وَلَا اعْتَضْتُ مِنْ رَبِّ نُعْمَايَ رَبِّ⁵¹

أراد: ربّاً، فإنّه وقف على المنوّن المنصوب بالسكون ولم يبدله ألفاً، وهي لغة لربيعة. يعلق ابن بزيمة على ذلك بقوله: «وفي شعر المتنبي وإن لم يكن حجة...»⁵² ثم أورد عقيب ذلك قول المتنبي الذي أوردناه.

يلي المتنبي في كثرة الاستشهاد بشعره- من المولّدين - أبو نواسمن ذلك قوله الذي أوردته كثير من المتأخرين:

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا *** حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ⁵³

فأنّت (صغرى)، و(كبرى) مع وجود (من) وقد دافع ابن الهرمي عن أبي نواس بقوله: «وأرى أنّه ليس عليه في ذلك شيء؛ لأنّه أراد صغرى وكبرى كائنة من فواقعها، كما تقول محمد الأفضل من قريش، أي منسوباً في قريش، كائن منهم، فقد بان بأنّ أفعل إذا كان بالألف واللام تُني وجمع، وإذا كان مضافاً جاز الوجهان؛ أن تثنيه وتجمعه، وألا تثنيه وتجمعه»⁵⁴.

إلى غير ذلك من نماذج لشعراء آخرين غير المتنبي وأبي تمام وأبي نواس، وهي على كل حال ليست كثيرة قياساً إلى شعر من سبقوهم من الجاهليين والإسلاميين، بيد أنّها تعدّ مسوغاً لأولئك المجددين من النُحاة؛ كالزّمخشري وابن مالك والرضي وابن هشام الذين لم يروا بأساً بالاحتجاج بشعر هؤلاء المولّدين.

إنّ أولئك النُحاة الذين أخذوا بمبدأ توسيع دائرة الاحتجاج كالزّمخشري وأضرابه لم يكتفوا بالاحتجاج بشعر من سُمّوا بالمولّدين، بل احتجوا بكلام بعض النّاثرين كالإمام الشافعي، فقد سئل غلام ثعلب فقال: «سمعت ثعلباً يقول يأخذون عن الشافعي وهو من بيت اللغة. يجب أن يؤخذ عنه» وقال الأزهري: «ألفاظ الإمام الشافعي عربية محضة، ومن عجمة المولّدين مصونة»⁵⁵ فالشافعي قد تلقى اللّغة مشافهة؛ إذ كان قد خرج إلى البادية ولزم قبيلة هذيل، فأفادته ملازمتها معرفة واسعة باللّغة والشعر، وفصاحة تلامس الفطرة. ومثل الإمام الشافعي في حذق العربية واكتساب ذوقها الجاحظ والمعري والحريري وغيرهم ممن تشهد مؤلفاتهم بالمعرفة الواسعة بالعربيّة.

وصفوة القول ومحصول الحديث عن موقف النّحويين واللّغويين من الاحتجاج بشعر من سموهم المولّدين يتفرع إلى ثلاث اتجاهات:

الاتجاه الأول: لا يجيز أصحابه الاحتجاج بشعر المولّدين، بل منهم من يتشدد فيمتد الرفض إلى شعراء الطبقة الثالثة، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجبرير والفرزدق، ومن هؤلاء أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وأضرابهما كما مر سابقاً.

الاتجاه الثاني: يقف على رأسه الزّمخشري ومن ذهب مذهبه، وهو قبول ما وثّقه علماء اللّغة ورواها كأبي تمام والمتنبي وغيرهما. فعلى رأي الزّمخشري ومن سار على نهجه جواز الاحتجاج بكل من وثّقه الرواة والعلماء وشهدوا له بالفصاحة والحذق للغة العربيّة وأساليبيها، شاعراً أو ناثراً. ومن أمثلة هؤلاء أبو نواس، الذي عاش في القرن الثاني الهجري (145-195هـ)، فقد اختلف إلى حلقات العلماء في البصرة والكوفة، كأبي زيد الأنصاري صاحب النوادر، وأبي عبيدة معمر بن المثنى صاحب مجاز القرآن، كما نظر في كتابه سيبويه، يقول الجاحظ: «ما رأيت رجلاً أعلم باللّغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة، مع مجانية الاستكراه» قال إسحاق بن إسماعيل قال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب، منهم الخنساء وليلى، فما ظنك بالرجال»⁵⁶

والذي يبدو لنا أن النُّحاة الذين رفضوا الاحتجاج بشعر أبي نؤاس، لم يرفضوه لنقص في فصاحته، أو جهل باللُّغة ودلالاتها أو خطأ صريح في كلامه، بل رفضوا الاحتجاج بشعره- فيما يظهر من أقوالهم- لمجونه وفسقه، يقول أبو عمرو الشيباني: «لولا أنّ أبا نؤاس أفسد بهذه الأقذار لاحتججنا به لأنّه محكم القول لا يخطئ»⁵⁷.

إذن لم يرفض بعض النُّحاة الاحتجاج بشعره لأمر له علاقة باللُّغة، بل هو أمر يتصل بالأخلاق. ولو كان المجنون يمنع من الاحتجاج لكان الأولى بهذا المنع الأعشى وامراً القيس!، وربما كان هذا هو السبب في رفضهم الاحتجاج بشعر بشّار بن برد لأنه كان أشد مجنوناً من أبي نؤاس.

على أننا حين ننظر في مآخذ النّحويين على هؤلاء المولّدين كأبي نؤاس وبشّار نجدها لا تعدو السقطات التي أخذت على شعراء الطبقات الثلاثة التي يحتج بشعرها من جاهليين وإسلاميين، وهو مما اغتفره لهم العلماء وبحثوا لهم عن وجوه تصحّحه، والتمسوا لأصحابه العذر. وإذا أعوزهم التأويل حملوه على الضرورة، وكل ما سمي بالضرورات هو من هذا الباب.

الاتجاه الثالث : وهؤلاء أجازوا الاحتجاج بالمولّدين في المعاني دون الألفاظ والتراكيب، ومن هؤلاء ابن جني، فقد استشهد بقول المتنبي:

وَأَنَا إِذَا مَا الْمَوْتُ صَرَّحَ فِي الْوَعَى *** لَبِسْنَا إِلَى حَاجَاتِنَا الضَّرْبَ وَالطَّعْنَ⁵⁸

على تخريج قراءة ﴿وَلْيَلْبِسُوا عَلَيْنَهُمْ دِيْنَهُمْ﴾⁵⁹ بفتح الباء، قال معلقاً على ذلك: «فإما أن يكون هذا الشاعر نظر إلى هذه القراءة، وإما أن يكون أراد المراد منها فسلك سنة قارئها، فاعرف ذلك ولا تقل ما يقوله من ضَعُفَتْ نحيزته، وركت طريقتة، هذا شاعر محدث، وبالأُمس كان معنا فكيف يجوز أن يحتج به في كتاب الله جل وعز، فإنّ المعاني لا يرفعها تقدم ولا يزري بها تأخر»⁶⁰

إنّ تقييد النُّحاة واللغويين الاحتجاج باللُّغة بعصر معين واتّخاذ ذلك مقياساً وحيداً يرفض بموجبه كل تجديد في ألفاظ اللُّغة وأساليبها لهو تجميد للغة، وإعاقة لها عن أداء وظيفتها باعتبارها ظاهرة اجتماعية تعبر عما يجدر في حياة المجتمعات من ضروب الفكر وأنماط الحياة، يقول عثمان الفكي في هذا الشأن: «ومهما تكن قوة الدوافع على المحافظة على سلامة اللُّغة وحراستها من الفوضى، والحرص على بقاء خصائصها الأصلية، فإنّ مراعاة التطور الذي هو من طبيعة اللُّغة أمر حتي لا يجوز إغفاله؛ إذا أريد دراسة اللُّغة على نهج علي»⁶¹

إنّ المنهج القويم والمسلك الحكيم ليس رفض ما سمي بشعر المولّدين، بل المنطق يقتضي فحصه ودراسته والتّعرف على ما فيه من مظاهر التجديد؛ لكونه يمثل طوراً من أطوار اللُّغة، سعى من خلاله المولّدون إلى التعبير عن واقعهم، فتصرفوا في اللُّغة كما تصرف فيها من سبقوهم؛ اشتقاقاً وتركيباً ودلالة، فالواجب العلمي يقضي بتتبع نتاج الشعراء والناثرين، بعد انقضاء فترة الاحتجاج التي حدّدها النُّحاة (أواخر القرن الثاني الهجري في الحواضر، ونهاية القرن الرابع في البوادي) لنعرف مقدار محافظة هذه النصوص على العرف اللغوي للفصحى، شعراً ونثراً، فنقبل ما جاء موافقاً لقواعد الفصحى الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، وعندئذٍ لن يكون هناك فرق بين إنتاج المولّدين وما وثقه النُّحاة واللُّغويون من مادة اللُّغة في عصر الاحتجاج ؟.

إنّ من يتصفح دواوين هؤلاء الشعراء الذين سُمّوا بالمولّدين كأبي تمام وأبي نؤاس والمتنبي والمعري والبحري ... الخ وآثار الناثرين كالإمام الشافعي وابن قتيبة والمعري، سيكتشف لأدنى تأمل التّزام هذه المجموعة

ومن كان على شاكلتها بقواعد العربيّة الفصحى، مما يؤكّد أنّ تقييد فترة الاحتجاج بعصر معين لم تكن فكرة صائبة؛ إذ أدت إلى تجميد اللّغة وفقدانها لثروة ضخمة حجزها هذا القيد عن الجريان في نهر اللّغة المتجدد، الذي لا يتوقف عن الجريان، يشير فندريس إلى ما ذكرناه، حيث كان يرفض القول بوجود لغة مثالية وجدت في عهود سحيقة في فجر التاريخ، وأنّ هذا فرض خيالي لا قيمة له، إذ يجب أن نسلم بالتغيير لأنّه حتمي. فاللّغة تتطور وكل مرحلة من مراحل تطورها جديرة بالدراسة؛ ما دامت تعبّر عن حاجات المجتمع وعاداته وتقاليده، وليس لنا أن نصف اللّغة بالتقدم أو الانحطاط. فاللّغة لا توجد خارج أولئك الذين يفكرون ويتكلمون إنما تمدّ جذورها في أعماق الضمير الفردي.⁶²

إنّ الذي نخلص إليه من هذا العرض، أن نذهب مذهب الإمام الزمخشري، فنقبل الاحتجاج بأولئك الشعراء الذين حافظوا على عرف اللّغة وتقاليدها أهلها، واشتهروا بسلامة لغتهم وتمرّسهم بأساليبها كأبي تمام والمتنبي وأبي نّوأس ... وغيرهم ممن كان على نهجهم. ونجعل شعار هذه الفكرة ما قاله الزمخشري: أن نجعل ما يقولونه بمنزلة ما يروونه، لمّا سئل عن سبب احتجاجه بأبي تمام فقال: أنا أجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه.

ومسوّغنا للدعوة بتوسيع دائرة الاحتجاج لتشمل من أشرنا إليهم عدة أمور:

الأول: أنّ كثيراً من النّحويين - خاصة المتأخرين - احتجوا بهؤلاء المولّدين، فقد احتجّ أبو على الفارسي بأبي تمام كما في قوله :

مَنْ كَانَ مَرَمَى عَزْمِهِ وَهَمُّومِهِ *** رَوْضَ الْأَمَانِي لَمْ يَزَلْ مَهْزُولًا⁶³

نقل بعض الباحثين أنّ سيبويه استشهد بشعر بشار، لكنّ الباحثين لم يقفوا على موضع الاستشهاد في كتاب سيبويه.

واحتج كثير من المتأخرين كابن مالك وابن هشام والرضي وبعض شراح الألفية بشعر المتنبي والمعري وأبي نّوأس وأبي تمام. ولا اعتبار لقول بعضهم إنهم إنما احتجوا بهؤلاء المولّدين على سبيل التمثيل؛ لأنّهم يستشهدون بهذه الأبيات للأغراض نفسها التي يستشهدون به الشعراء المتقدّمين حين لا يجدون غيرها.

الثاني: إنّ وقف الاحتجاج عند الحدود التي عيّنها النُّحاة، فيه تجميد للّغة وحرمانها من ثروة لغوية ضخمة، بل إنّ الاحتجاج بشعر هؤلاء المولّدين لا يؤدي إلى هدم قواعد اللّغة العربيّة، بل يؤدي إلى اتّساعها وتجديدّها.

الثالث: رفض علماء اللّغة المحدثين الربط بين اللّغة والعنصر، باعتبار اللّغة سلوكاً اجتماعياً يكتسب ويُتعلّم بالمران والدربة مثل كلّ العادات والتقاليد الاجتماعية الأخرى، فلا يجوز التفريق بين من يعيشون في مجتمع لغوي واحد، يتعاطى عرفاً لغوياً واحداً متوارثاً من جيل إلى جيل، وهي الفكرة التي أسس عليها رفض قبول شعر المولّدين⁶⁴

لقد استمرّ الجدل حول توثيق الشعراء، وحدود هذا التوثيق الزمانية والمكانية منذ أن بدأ في القرن الأول الهجري وإلى يومنا هذا. وقد اتّجه مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة إلى مناقشة هذه القضية في سياق النقاش عن القياس على كلام العرب، قانعاً من ذلك بالقياس في الألفاظ والأبنية، أي استنباط الصيغ أو الكلمات الجديدة في ثوب قديم، ولم يحاول القياس في التراكيب. يلخص الدكتور أنيس موقف مجمع اللّغة القاهري بقوله: «واتجه مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة منذ إنشائه إلى قضية القياس اللّغوي ورأى أنّ التنمية لألفاظ

اللغة إنما تكون عن طريق القياس، غير أنه بدأ تفكيره على حذر، أي لم يندفع في أول الأمر إلى الأخذ بالقياس بالمعنى الذي أراده أبو على الفارسي⁶⁵ في كل ما يعنُّ لأعضائه، فلم يحاول القياس في الدلالات ولا في التراكيب⁶⁶ ولم يرضَ عن هذا القرار المجمعي بعض أعضائه وبعض المثقفين؛ إذ رأوا فيه تضيقاً على من أسموهم زعماء البيان، من هؤلاء الأستاذ إبراهيم مصطفى صاحب إحياء النحو، حيث دعا إلى النظر في آثار الأدباء المعاصرين من كتاب وشعراء ممن كان صحيح العربية، سليم الأسلوب، وثقناه وجعلنا ما يقوله حجة ومن لم يكن كذلك رفض الاحتجاج به. ونحن لا نوافق على دعوة هؤلاء الساخطين على قيود مجمع اللغة العربية في التوثيق والاحتجاج ليشمل المعاصرين لأنَّ ضبط ذلك أمر مستحيل.

الخاتمة

- تضمَّنت الصفحات السابقة دراسة وافية لمنهجية النُحاة في الاحتجاج بالشعر العربي، أحد أهم المصادر في استنباط قواعدهم، والوقوف - بالتفصيل - على موقفهم من شعر من سُموا بالمولدين.
- وقد اهتدى الباحثان إلى جملة من النتائج نوجز أهمها في النقاط التالية:
- ثبت لدينا بالدليل أن النُحاة اتخذوا الشعر من بين كل مصادر الاحتجاج الأخرى - القرآن الكريم والحديث الشريف والنثر العربي - مصدرهم الأول في استنباط قواعدهم، يثبت هذه الحقيقة ممارسة النُحاة العملية كما تبدو في مؤلفاتهم ككتاب سيبويه والمقتضب للمبرد. وهذا يعنى أنَّ ما يرويه بعض الباحثين أن النُحاة اتخذوا القرآن مصدرًا أولاً لقواعدهم، قول غير صحيح.
 - اهتدى الباحثان إلى استنباط الأسس التي مثلت مرجعية للنُحاة في موقفهم من الشعر، وهي:
 - القيد الزماني، البيئة، طبيعة الشعر.
 - و على ضوء هذه الأسس وقف الباحثان على موقف النُحاة من الشعر عامة، وشعر المولدين خاصة.
 - تبين للباحثين - بعد التأمل والدراسة - أنَّ مصطلح الشعراء المولدين يمتاز بالعموم والإبهام، إذ لم يُبنَ هذا التوصيف لمصطلح المولدين على أسس علمية واضحة، بل ربما كان مرجعه أذواق اللغويين والنحويين.
 - تأكد لنا أنَّ اللغويين والنحويين لم يكونوا على رأي واحد من قضية الاحتجاج بالشعر، فهناك من وقف بها عند حدود القرن الرابع الهجري في البوادي، والقرن الثاني في الحضر، وهناك من وسع دائرة الاحتجاج متجاوزاً بها القيود الزمانية.
 - يُعدُّ الإمام الزمخشري من الرواد في توسيع دائرة الاحتجاج بعد العصور التي حددها النُحاة واللغويون المتشددون، فهو صاحب المقولة المشهورة (أجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه) لما سُئل عن سبب احتجازه بشعر أبي تمام.
 - إن تقييد النُحاة واللغويين الاحتجاج بالشعر بعصر معين، واتخاذ ذلك مقياساً وحيداً فيه تجميد للغة، وإعاقة لها عن أداء وظيفتها في كونها وظيفة اجتماعية تعبر عما يستجد في حياة المجتمعات.
 - خلص الباحثان إلى رفض الدعوة إلى الاحتجاج بشعر المعاصرين ونثرهم؛ لأنَّ ضبط ذلك أمر مستحيل.

إحالات البحث

¹ يراجع في ذلك: البيان والتبيين، للجاحظ 210/2-225، والعقد الفريد، لابن عبدبره 2/479، 3/477، والخصائص، لابن جني 2/12-17، 3/273-309، ونشأة النحو، للشيخ الطنطاوي ص: 16-20.

² العمدة، لابن رشيق 90/1

³ الموشح، للمرزباني ص: 226

⁴ المرجع السابق ص: 260

⁵ المرجع السابق ص: 249

⁶ الخزانة، للبغدادي 6/1

⁷ الخزانة، لبغدادي 6/1

⁹ المزهر، للسيوطي 2/275

¹⁰ طبقات الشعراء، لابن سلام 4/1

¹¹ الموشح، للمرزباني ص: 250

¹² خزانة الأدب، للبغدادي 5/1

¹³ العمدة، لابن رشيق 90/1

¹⁴ خزانة الأدب، للبغدادي 6/1

¹⁵ الشعر والشعراء، لابن قتيبة 69/1

¹⁶ العقد الفريد، لابن عبدبره 5/384

¹⁷ الاقتراح في علم أصول النحو، للسيوطي ص: 70

¹⁸ خزانة الأدب، للبغدادي 7/1

¹⁹ العمدة، لابن رشيق 90/1

²⁰ المرجع السابق 91/1

²¹ خزانة الأدب، للبغدادي 6/1

²² الموشح، للمرزباني ص: 249

²³ المصدر السابق ص: 316

²⁴ المصدر السابق ص: 249

²⁵ الموشح، للمرزباني ص: 250

²⁶ الاقتراح في علم أصول النحو، للسيوطي ص: 70

²⁷ الاستشهاد في النحو العربي، أصول النحاة ومناهجهم، لعثمان الفكي ص: 335

²⁸ الموشح، للمرزباني ص: 310

²⁹ الموازنة، للأمدى 23/1

³⁰ الأغاني، للأصفهاني 7/174

³¹ الاقتراح في علم أصول النحو، للسيوطي ص: 70

³² ديوان بشار بن برد، ص: 111

³³ المرجع السابق ص: 133

³⁴ الموشح، للمرزباني 310، 311

³⁵ ينظر: الخصائص، لابن جني 1/360، 114، 3/298، والاقتراح، للسيوطي ص: 109

³⁶ الخصائص، لابن جني 357/1

- ³⁷ البيان والتبيين، للجاحظ 50/1
- ³⁸ العقد الفريد، لابن عبدربه 383/5
- ³⁹ سورة البقرة، الآية: 20
- ⁴⁰ ديوان أبي تمام 150/1
- ⁴¹ الكشاف، للزمخشري 220/1
- ⁴² ديوان المتنبي ص: 76
- ⁴³ شرح الرضي على الكافية، القسم الثاني-المجلد الأول، ص: 179
- ⁴⁴ المرجع السابق 450/3
- ⁴⁵ ديوان المتنبي ص: 36
- ⁴⁶ المرجع السابق ص: 58
- ⁴⁷ يراجع مثلاً: المغني، لابن هشام 714/2، غاية الأمل، لابن بزيّة 107/2
- ⁴⁸ ديوان المتنبي ص: 331
- ⁴⁹ شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، لابن مالك، ص: 268
- ⁵⁰ ديوان المتنبي: 442
- ⁵¹ المرجع السابق ص: 438
- ⁵² غاية الأمل، لابن بزيّة 419/2
- ⁵³ ديوان أبي نواس ص: 72
- ⁵⁴ المحرر في النحو، لابن الهرمي ص: 947
- ⁵⁵ المواهب الفتحة، لحمزة فتح الله 56/1
- ⁵⁶ نزهة الأدباء، لابن الأنباري ص: 97
- ⁵⁷ الاستشهاد في النحو العربي، لعثمان الفكي ص: 339
- ⁵⁸ ديوان المتنبي ص: 316
- ⁵⁹ سورة الانعام، الآية: 137
- ⁶⁰ المحتسب، لابن جني 231/1، وانظر: الخصائص، لابن جني 24/2، وشرح أرجوزة أبي نواس، لابن جني ص: 8، 9.
- ⁶¹ الاستشهاد في النحو العربي، لعثمان الفكي ص: 349
- ⁶² اللغة، لفندريس ص: 419
- ⁶³ ديوان أبي تمام 67/3
- ⁶⁴ الرواية والاستشهاد، للدكتور محمد عيد ص: 284
- ⁶⁵ وهو قوله: ما قيس على كلام العربي فهو من كلام العرب
- ⁶⁶ طرق تنمية الألفاظ في اللغة، للدكتور إبراهيم أنيس ص: 26-27

